

الجمال المسكوب في القوارير قصة عرنين مبین!

السعيد أهرو
الكلية المتعددة التخصصات بأسفي

الجمال المسكوب في القوارير هو العطر الكريم الذي تنشق منه كأنك تعشقه! والذي إذا تنسمته زفقت به لروحك¹ عروسها، وأثرت لها طاووسها، حتى إذا نشر هذا الطاووس ذيله، جاس خلالها السرور وأجلب عليها رجله وخيله؛ وأما العرنين² المبين، فهو الأنف الذي يفض الرائحة عند شمها كما تفض الأختام، فيفيض مارج قبسها من بين دُخانها، وحر فلزها من بين أخلاطها، وإذا غم عليه أصل الرائحة، متى كانت من الأرج الهائم على وجهه، فلا ينفك حتى يفض أثرها من ورائها، داخلا عليها الباب الذي منه خرجت، والعش الذي عنه درجت؛ وهذا، لعمرى، أنف يأنف أن يكون عند أحد من الناس، إلا أن يكون نبيا كيعقوب الذي قال: (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنن³)، وكان عليه السلام، وهو بالشام، قد وجد ريح يوسف ساعة فصل إخوته بقميصه من مصر؛ أو أن يكون كاهنا دهقاناً يوحى إليه شيطان رائحة! أو أن يكون هو جان باتيست غرثوي نفسه، أعظم عطار على مر الدهر، كما تزعم ذلك رواية: العطر/ قصة قاتل لباتريك زوسكيند⁴.

وأريد أن أتحري الآن عن هذا العرنين المبين: عرنين غرثوي، إذ هو موضوع هذه الورقة، متأملا في مفارقه الأصلية المتمثلة في كونه عرنينا تنفس عند استهلال صاحبه بالولادة أنتن هواء يمكن تصوّره، ثم عاش يعب منه معظم عمره، وهو مع ذلك، ويا للعجب، قد اجتراح أروع الروائح على الإطلاق، بل لقد استخفى بعضها من مواد وأصول لا تلين لمراد العطار منها إلا كما يلين الحجر لضرس الماضغ؛ ومن صميم مفارقه في ذلك أن إحدى هذه الروائح المسلوكة من ضد معادنها، والتي هي فذلكه روائحه كلها وغفوان مكرعها⁵، قد أفضت به إلى أحب مية؛ فغرثوي الذي جعل بأنفه هذا العبق ساميا رغم أنفه، قد تردى به حنق أنفه!

هذا إذا جانب من نبوغ عرنين غرثوي، ومن غرابة مفارقه، أذكره لا للمصادرة به على المطلوب، وإنما للإغراء بالانصراف إلى ترقب ما سيرد منه مفصلا ومعللا، تحت تأثير المبدأ الذي سمّيته: الجميل رغم أنفه؛ بيد أنني أحتاج، قبل الخروج إلى ذلك، أن أمهد له بكلام مقتضب على حيئية الشم من الحواس.

أولا، الشم رئيس الحواس

إن بلاء الأخشم، الذي لا يجد رائحة الأشياء، لهو من وزن بلاء الأعمى والأبكم والأصم، لا يقل عنهم في العي الذي يصيب بيانهم، والهذم الذي يلحق عالمهم، عافانا الله، بل ربما وجدنا للشم خصوصية ما، ليست لغيره

¹ - «الروح: النفس، يُذكر ويؤنث والجمع أرواح»؛ لسان العرب/ مادة: (روح).

² - «وفي صفته صلى الله عليه وسلم: أقى العرنين؛ العرنين الأنف، وقيل رأس الأنف»؛ لسان العرب/ مادة: (عرن).

³ - سورة يوسف، الآية الرابعة والتسعون.

⁴ - ترجمة: نبيل الحفار، دار المدى، دمشق، 2008.

⁵ - أي أول الماء، وهو هنا بمعنى: أصفاه وأنقاه؛ مأخوذ من قول معاوية رضي الله عنه: «أنا ابن هند، إن أطلقت عقالي الحرب، أكلت ذروة السنام، وشربت غفوان المكرك، وليس للأكل إلا الفلدة، ولا للشارب إلا الرئي».

من هذه الجوارح، فهو الحسّ الوحيد الذي يصعبُ إلغاؤه مؤقتًا على نحوٍ إراديٍّ؛ فالبصرُ يَنْقَطِعُ بمجردَ إغماضِ المَبْصِرِ عَيْنَيْهِ، والكلامُ بمجردَ إطباقِ المتكلِّمِ شَفَتَيْهِ، والسمعُ بمجردَ إدخالِ السامعِ أُصْبُعِيهِ في أُذُنَيْهِ، أمَّا الشَّمُّ، فلكونه يجري مع النفسِ في دَوْدٍ واحدٍ، أو بكلمةِ زوسكيند، فلكونه «شقيق الشَّهيق»⁶، فقد أضحى قطعُه ضربًا من الخنقِ، أو قُلَّ إنَّ قَطَعَ الشَّمُّ هو من قَبِيلِ: القتلِ الأصغر! ولهذا، كاد الأَحْشَمُ أن يكون مقتولا!

والأَحْشَمُ، وإن بدا كالنَّاسِ، يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ، ويغدو ويروح، فلا يعدو أن يكونَ، في حقيقة الأمر، أشبه بمُؤَمِّيَاءَ تَرْتَعُ في مقبرة! وذلك لأنَّه يوشِكُ أن لا يَسْتَلِدَّ شَيْئًا؛ لا خَبْرَهُ، ولا إِدَامَهُ، ولا شَرَابَهُ، ولا طَيِّبًا من طَيِّبَاتِ حَيَاتِهِ، وذلك لأنَّ شَطْرَ لَذَّةِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، وغيرِهما، إطبَابُ المَشَمِّ منهما؛ فَجُزْءٌ من أَكْلِ الخَبَرِ مثلاً شَمُّهُ، إن لم يكن هو جزؤه الذي لا يَتَجَزَّأُ! إذ رائحةُ الخبزِ، كما قيل، من أَطِيبِ ما يُشَمُّ من الروائحِ؛ وَجُزْءٌ من شَرَبِ القهوةِ مثلاً تَنَسُّمُهَا؛ فلو قُلْتَ إِنَّكَ تَنَسَّمْتَهَا عَوْضَ قولِكَ إِنَّكَ شَرِبْتَهَا، لكان جوابُكَ هذا أَصْدَقُ في خبرِكَ عنها! ويوشِكُ هذا الأَحْشَمُ، فضلا عن ذلك، أن يُنْكِرَ الأجسادَ من حوله، حتى الأقربَ منها إليه، بما فيها جسدهُ نفسه! يعلمُ أنَّه لا يعرفُها حَقَّ المعرفة، وأنَّه لا يرتاحُ إليها كَلِّ الراحة، كأنَّ بعضَ المعرفةِ من العَرَفِ⁷! وبعضَ الراحةِ من الرائحةِ! وشبيهٌ به في هذه الغُربةِ، ما وَقَعَ لغرنوي عند ولادته، إذ أنكرتُه المراضِعُ وَنَبَذْنَهُ، لا لأنهنَّ كُنَّ فاقِدَاتِ للشَّمِّ، بل لأنَّ غرنوي لم يكن موضوعا للشَّمِّ أصلا، لقد كان بَشَرًا بلا رائحةٍ! ولم تَقْبَلْهُ في النهايةِ إِلَّا السَيِّدَةُ غايار، فقد كانت، لِحُسْنِ حَظِّهِ، امرأةً حَشَمَاءَ!

ولما كان الشَّمُّ قَرِينِ النفسِ، كان خِذْنًا للروحِ، وربما كانت خَوْخَتُهُ⁸ عليها أَقْرَبَ من خَوَّاتِ غيره من الحواسِ على هذه الروحِ، إذ يُرى له من الأثرِ فيها عند تَنَسُّمِ الروائحِ النَبِيلَةِ، ما لا يُرى لتلك الحواسِ؛ فالشَّمُّ، كما قُلْتُ، معنًى من معاني النفسِ، والنفسُ مَروحةٌ للروحِ! ثم إنَّ الظَّنَّ يَقْوَى في أن تكونَ للروحِ صلةٌ أخرى بالرائحةِ، غيرُ صلةِ كونِها تَسْتَرْوِحُ بِالْعَبَقِ الطَّيِّبِ الذي يُهْدِيهِ إليها الشَّمُّ، وذلك على الأقلِّ من جهةِ اللَّعْغَةِ، إذ ترجعُ الرُّوحُ والرائحةُ إلى نفسِ الاشتقاقِ، بل إنَّ هذه الصلةَ الغامضةَ بينهما تجدُّ لها نوعَ توكيدٍ في صنيعِ المجوسِ بمِيتَتِهِمْ قبل وضعه على النَافُوسِ، إذ لا يُقَرُّونَ بخروجِ روحه، إلا بعد أن يُقَرَّبُوا منه كلبًا لِيَشُمَّهُ، لا يخفى عليه في شَمِّهِ عندهم: أفيهِ الرُّوحُ أم ليست فيه؟⁹ وهذا عملٌ من يعتقِدُ أنَّ للروحِ رائحةً ما!

والشَّمُّ ليس بمعزِلٍ عن الانفعالاتِ المختلفةِ، وما ينبغي له أن يكون بمعزِلٍ عنها؛ ولا أراك تَشْكُ، بعد تلطيفِكَ التَّأَمُّلِ فيه، أنه ينفعلُ لما تنفعلُ له النفسُ، سواءً بسواءٍ؛ فكما أنَّ البصرَ يزيغُ عند الخوفِ، والسمعُ يَطِنُ عند الهَيَّاجِ، فكذلك الشَّمُّ له من الهيئةِ ما يُلَاقِ كَلَّ حالٍ، عَلِمْنَا ذلك أم لم نَعْلَمْهُ! وعليه، فيمكنُ تخيُّلُ المستشيطِ غَضَبًا رَجُلًا كَالنَّيْنِ يَشَمُّ رائحةَ الدُّخَانِ، ويمكنُ تخيُّلُ الطَّمَاعِ بِأَنْفٍ كَخِطْمِ الكَلْبِ يَشَمُّ رائحةَ الثَّرَابِ، والبخيلِ

⁶ - المتن، ص: 178.

⁷ - العَرَفُ: الرائحة؛ لسان العرب/ مادة: (عَرَفَ).

⁸ - الخَوْخَةُ: «كُوَّةٌ في البيتِ تَوَدِّي إليه الضوء؛ وفي الحديث: لا تبقى خَوْخَةٌ في المسجدِ إِلَّا سُدَّتْ غيرَ خَوْخَةٍ أَبِي بكر الصديق رضي الله عنه» الرائحة؛ لسان العرب/ مادة: (خَوْخَ).

⁹ - كتاب الحيوان، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، 1996، ص: 375.

بِمَجَسٍّ شَمِّ كَمَجَسِّ الْقُرَادَةِ¹⁰ يَشْمُ رَائِحَةُ الدَّمِّ، ويمكن تصوُّرِ الكريمِ يَشْمُ طَيِّبًا على كلِّ حال، بل لقد كاد أن يَشْمَ الطَّيِّبُ في الإِبْطِ!¹¹ وتَصَوُّرِ المَحَبِّ يَجْدُ الشَّدَى حيثما كان حبيبُه، وربما وَجَدَه منه حيث لا يَضَعُ الرَّاقِي أَنْفَهُ!¹² وذلك كَفَعْلٍ رَجُلٍ يُقالُ له: المَكِيُّ تَعَشَّقَ جَارِيَةً تُسَمَّى سَنْدَرَةً، وتزوَّجها، وكانت ذاتَ صُنَّانٍ، وهو معجَبٌ بذلك منها، فلمَّا كانت تعالجه بِالْمَرْتَكِ، وهو من عطورهم، كان ينهاها عنه أَشَدَّ ما يكون النَّهْيُ؛ يقول المَكِيُّ: «فَلَمَّا عَرَفْتُ شهوتي، كانت إذا سألتنِي حاجةً ولم أَقْضِهَا، قالت: وَاللهِ لَا تَمَرَّتْكَ، ثُمَّ وَاللهِ لَا تَمَرَّتْكَ، ثُمَّ وَاللهِ لَا تَمَرَّتْكَ! فلا أَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ أَقْضِيَ حاجَتَهَا كائنًا ما كان!»¹³. والانفعالُ بِالْمَحَبَّةِ لا يخلو مِنْ أَنْ يكون انفعالًا شَمِيًّا، فربما عَشِقَ الْأَنْفُ قَبْلَ أَنْ تَعَشَّقَ الْعَيْنُ!¹⁴ ولهذا ما أَكْثَرَ ما اقترنتِ المَحَبَّةُ بِالرَّائِحَةِ في حديثِ المَحِبِّينَ عن أَحبابهم، كقولِ المَرْأَةِ الثَّامِنَةِ من نساءِ حديثِ أُمِّ زَرْعٍ: «زَوْجِي: الرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْزَبٍ!»¹⁵؛ وكقولِ الحَرِيرِيِّ على لسانِ الحَارِثِ بنِ هَمَّامٍ: «ثُمَّ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ القَرِينَةَ الصَّالِحَةَ تَرْبُ بَيْتَكَ. وتُلَيِّ صَوْتَكَ. وتَغْضُ طَرْفَكَ. وتُطَيِّبُ عَرْفَكَ؟ وبها تَرَى قُرَّةَ عَيْنِكَ. وَرِيحَانَةَ أَنْفِكَ. وفرحةَ قَلْبِكَ. وَخُلْدَ ذِكْرِكَ. وتَعْلَةَ يَوْمِكَ وَغَدِكَ»¹⁶. وحسبي هذا الْقَدْرُ من الدَّلَالَةِ على مَنْزِلَةِ جَارِحَةِ الشَّمِّ بَيْنَ الجَوَارِحِ الأُخْرَى؛ فَكأنَّ ما تيسَّرَ من ذلك يَشْرُحُ الصِّدْرَ إلى تَلْقَى الكلامِ على هذا الجمالِ الفريدِ الذي سَكَبَهُ غرنوي في زجاجة!

ثانياً، عرنين الدَّمَنِ

¹⁰ - وفي أمثال العرب: أَسْمَعُ مِنْ فُرَادٍ؛ وَلَوْ قِيلَ: أَشْمُ مِنْ فُرَادٍ لَكَانَ صَالِحاً أَيْضاً، لِأَنَّهُمْ يَسْتَدْلُونَ عِنْدَ الْمِيَاهِ عَلَى قُرْبِ الْإِبِلِ مِنْهُمْ بِاتِّعَاشِ الْفُرَادِ، وَتَقْدِيرِهِمْ أَنَّهَا تَسْمَعُ مِنْ وَزْنٍ تَقْدِيرِي أَنَّهَا تَشْمُ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ الشَّمُّ أُنْسَبَ لَطِبَاعِ هَذِهِ الْهَوَامِّ!

¹¹ - أَهْمْتُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ الْجَاهِظِ: «التَّيْسُ إِطُّ كَلُّهُ!»؛ كِتَابُ الْحَيَوَانِ، الْجُزْءُ الْخَامِسُ، تَحْقِيقُ عَبْدِ السَّلَامِ مُحَمَّدِ هَارُونَ، دَارُ الْجِيلِ، بَيْروت، 1996، ص: 466.

¹² - من أمثال العرب؛ قال عنه الحسن البصري: «أَوَّلُ مَنْ تَطَلَّقَ بِهَذَا الْمَثَلِ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَأَطْنَهَا زَوْجَةٌ حَنْظَلَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ، أَوْ بَنَتُهُ، وَكَانَ حَنْظَلَةُ شَيْخًا كَبِيرًا. فَأَصَابَتْهُمْ لَيْلَةٌ رِيحٌ وَمَطَرٌ وَبَرَقَ. فَخَرَجَتْ تُصْلِحُ طُنْبَ بَيْتِهَا وَعَلَيْهَا صَدَارٌ، فَأَكْبَتْ عَلَى الطَّنْبِ، وَبَرَقَتْ السَّمَاءُ بَرْقَةً، فَأَبْصَرَهَا مَالِكُ بْنُ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَهِيَ مَجْجِيَةٌ، فَشَدَّ عَلَيْهَا حَتَّى خَالَطَهَا فَقَالَتْ:

يَا حَنْظَلُ بَنَ مَالِكِ لَحْرُهَا يُشْفَى بِهَا مِنْ لَيْلَةٍ وَقَرُهَا

فَأَقْبَلَ بَنُوها وَزَوْجُها فَقَالُوا لَهَا: مَا لَكَ؟ فَقَالَتْ: لِدَعْتُ. قَالُوا: أَيْنَهُ؟ فَقَالَتْ: حَيْثُ لَا يَضَعُ الرَّاقِي أَنْفَهُ! فَذَهَبَتْ مَثَلًا. وَمَاتَ حَنْظَلَةُ بْنُ مَالِكٍ فَتَزَوَّجَهَا مَالِكُ بْنُ تَمِيمٍ صَاحِبُ الدَّلْعَةِ فَوُلِدَتْ لَهُ نَفْرًا». زَهْرُ الْأَكْغَمِ فِي الْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ، الْجُزْءُ الثَّانِي، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٍ حَجِي (و) مُحَمَّدِ غَزَالٍ، دَارُ الثَّقَافَةِ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، ص: 147.

¹³ - الْحَيَوَانُ، مَرْجِعٌ مَذْكُورٌ، الْجُزْءُ الْخَامِسُ، ص: 466.

¹⁴ - مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ الْمَشْهُورِ: يَا قَوْمُ أَدْنِ لِيَعْضُ الْحَيَّ عَاشِقَةً وَالْأَدْنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

¹⁵ - بُغْيَةُ الرَّائِدِ لَمَّا تَضَمَّنَتْ حَدِيثَ أُمِّ زَرْعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ، لِلْقَاضِي عِيَّاضٍ، تَحْقِيقُ: صَلاحِ الدِّينِ بْنِ أَحْمَدِ الْأَدْلِيِّ (و) آخَرُونَ، وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ وَالشُّؤُونَ الْإِسْلَامِيَّةِ، ص: 8.

¹⁶ - مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ، بِإِشْرَافِ: صَدَقِيِّ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، دَارُ الْفِكْرِ، بَيْروت، 1994، الْمَقَامَةُ الْبَكْرِيَّةُ، ص: 447.

لم يولد هذا العرنين الحساس الذي يَشُمُّ من خِرْتِ إبرة، في فراش عطار، ولا رَتَعَتْ به قَدَمُ الصِّبَا في المروج والحدائق، ولا عَمِلَتْ به يَدُ الكَسْبِ الأوَّل في فَتِ المِسْك، أو فَرَكِ الزَّعفران، أو تحريقِ العود¹⁷؛ وإنما نَبَتَ، كما تَنَبَّتُ خضرَاءُ الدَّمَنِ¹⁸، في باريسِ القرنِ الثامن عشرِ الميلادي، حيث كانت تُهَيِّمُ الروائحُ الكريهةُ بصورةً جهنمية¹⁹؛ ففي جانبٍ مظلمٍ من هذه المدينة، وبالضُّبِطِ في سوقٍ مُوجِلٍ من أسواقها، يمشي منه الناسُ على أرضٍ مقبرةٍ قديمة ذاتِ جُشَاءٍ، أجاءِ المخاضِ والدَّةِ غرنوي، وهي تُقَطِّعُ رؤوسَ السَّمَكِ وتَبْعُجُ بطونه؛ حيث يقول السَّارِدُ في وصف ذلك: «عندما جاءتْها تقلُّصاتُ المخاض، قَبَعَتْ تحت طاولة تنظيفِ السمك، ووضَعَتْ مولودَها هناك، كما فعلتْ في المرَّاتِ الأربعِ السابقة، مستخدمةً سَكِينِ السمك في قَطْعِ حَبْلِ السُّرَّة»²⁰؛ وقد كان من عادة هذه الأم، التي لا تلد أولادها لِرِشْدَةٍ، أن تتخلَّصَ منهم في كلِّ مرَّةٍ يتركهم مع نُفَايةِ السمك، تُعَلِّمُ أنه لا يَتَقَطَّنُ إليهم ثمة أحد، لتَضَرُّجِهِمْ في دمائهم، ولكونهم أشبه بالمجاهيضِ منهم بالمواليد؛ غيرَ أنَّ غرنوي، كان أقوى عارضةً من إخوته في اسْتِيقَاءِ رَمَقِهِ، إذ استطاع، وهو راغِمُ الأنفِ بقاذورةِ السمك، أن يُلْفِتَ إليه الانتباه.

الثَّمِسَتْ المراضعُ لغرنوي بعد أن قُتِلَتْ أُمُّه صَبْرًا تحت المقصلة، لكنَّه لم يكن مقبولا عندهن؛ فسرعان ما يَأْتِينِ به إلى الأبِ تيرير الذي هو بمثابة كافِلٍ له ولأمثاله، فَيَتَرَكْنَهُ عنده، كما فَعَلَتْ معه المَرَضِعُ بوسي، التي وضعت سلَّةَ غرنوي عند قدميه في قَرْفٍ، كأنَّها مملوءة بالضفادع، وهي تقول له: «ابنُ الحَرَامِ هذا! ابنُ قاتلةِ الأطفال (...) إِنَّهُ يُلْتَهُمْ كُلُّ شَيْءِ ابْنِ الحَرَامِ هذا! أريدُ أنْ يَخْرُجَ ابنُ الحَرَامِ هذا من بيتي (...) إِنَّهُ مسكون بالشیطان (...) ليست لديه رائحة على الإطلاق!»²¹. ثم قرَّرَ غرنوي أخيرا عند المَرَضِعِ غيار التي لم ليكن ليقفلها رضيع مثله؛ لأنها فقدت الشم منذ أن هَشَّمَ أبوها جذرَ أنفها بقضيب المدفأة!

كانت كلمة: «سَمَكٌ» هي أوَّلُ كلمةٍ نطقها غرنوي، بالإضافة إلى كلمات أخرى ذاتِ امتيازٍ شَمِّيٍّ، من بينها اسمُ: «جاك لورو»، وهو مساعد بستانني كَسَبَ شهرته من كونه لم يَعْتَسِلَ قَطُّ! واهتمامُ غرنوي بهذه الكلمات يَدُلُّ على أنَّه قد أُعْطِيَ المَقَادَةَ لعرنينه على لسانه، بل على جميع حواسه، فهو جارحُته المُطْلَقَةُ لتَلْقَى العالم؛ وقد كان يَطْوِي في سِرِّهِ، على حادثةٍ سنِّهِ، جَمَهَرَةً كبرى من الروائح، لا تُحصى إلَّا على قَرِيبٍ مِنْ عِدَّةٍ: مِائَاتِ الآلافِ، وليس العَجَبُ منه حِفْظُ تلك الروائح، مع كَوْنِهِ عَجيباً، بل الذي لا يُقْضَى منه العَجَبُ لهوَ تصرُّفه فيها في نطاقِ خياله بتركيب بعضها إلى بعض، مما أُنْتَجَ به روائحٌ غُفْلًا كثيرةً بلا نظير. وكان منذ تلك السنِّ يَرَى بعرنينه ما لا يَرَى بعينه؛ فيُخْبِر، مثلاً، السيدةَ غيار عن قدوم زائرٍ قبل وصوله بوقْتٍ²²، ويذكرُ أنَّ في القَرْنَبِيْطِ دُوْدَةً قبل

¹⁷ - كان كسبه الأول العمل بالدباغة عند السيد غريمال؛ «يعمل في نزع اللحم عن الجلود ذات الروائح المُرْفَةُ وغسلها، في تَنْفِ الشَّعْر عنها وتكليسها وتنعيمها بالقَلَوِيَّات (...) كما كان ينزل في الخنادق المليئة بالجلود العفنة ذات الروائح الوخَّازة، ليرتَّبها في طبقات (...) كان عليه بعد سنوات أن يعود إلى نَبَشِ هذه الخنادق ليُخْرِجَ جَسَدَ الجلود من قبورها». المتن، ص: 40-41.

¹⁸ - مَثَلٌ ضربه رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم للمرأة الحسناء النَّائِبَةِ في مَنَبتِ السُّوءِ! وهو يُضْرَبُ بوحى من ذلك لكلِّ حَسَنٍ اسْتُلِّ من قبيح، ولكلِّ طَبِّبٍ اسْتُخْرِج من خبيث!

¹⁹ - المتن، ص: 8.

²⁰ - نفسه، ص: 11.

²¹ - نفسه، الصفحات: 12-13-15.

²² - المتن، ص: 36.

أَنْ يَفْلَهُ السَّكِينُ²³، وَيُحْصِي أَسْمَاءَ الْأَطْفَالِ الْمَوْجُودِينَ فِي الْغُرْفَةِ الْمَجَاوِرَةِ، وَمَا دَخَلَهَا وَلَا عَرَفَ مِنْ فِيهَا²⁴؛ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْهُ كِهَانَةً وَلَا زَكَاةً²⁵، بَلْ كَانَ اسْتِرْوَاحًا يَزِيدُ فِي الْحِدَّةِ عَلَى اسْتِرْوَاحِ الذَّنْبِ نَكْهَةً الْعَنَمِ!

لَقَدْ أُوتِيَ غَرْنُوِي بِسُطَّةٍ مُطْلَقَةً فِي شَمِّهِ، مَعَ أَنَّهُ نَشَأَ فِي مَشَمِّ نَتْنٍ يَكَادُ يَسْلُبُ الْعَرَانِينَ أَرْوَاحَهَا، ابْتِدَاءً مِنْ مُرَاغَمَتِهِ قُمَامَةِ السَّمَكِ بِسُوقِ أَبْخَرٍ²⁶، وَانْتِهَاءً بِعَمَلِهِ دَبَاغًا مُتَعَلِّمًا عِنْدَ السَّيِّدِ غَرِيمَالٍ، حَيْثُ وَجَدَ نَفْسَهُ، لِسَنَوَاتٍ طَوَالٍ، فِي عَرِيْنٍ رَائِحَةٍ طَاعُونِيَّةٍ²⁷؛ فَعَرْنِيْنُهُ، مِثْلُ أَيِّ شَيْءٍ يَخْرِقُ عَادَتَهُ، قَدْ تَمَحَّضَ مِنْ هَذِهِ الزُّهُومَةِ كَمَا يَتَمَحَّضُ اللَّبْنُ مِنْ بَيْنِ فَرْتِهِ وَدَمِّهِ؛ فَكَانَ بِذَلِكَ عَنَوَانًا لِلْجَمَالِ فِي نَفْسِهِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ عَنَوَانًا لَهُ فِي غَيْرِهِ، أَيُّ أَنَّهُ كَانَ جَمِيلًا أَصْلًا، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ جَاسُوسَ جَمَالٍ؛ بَيِّدَ أَنْ هَذَا الْعَرْنِينَ لَيْسَ كَعَرَانِينَ بَنِي هَاشِمٍ فِي حُسْنِ صَوْرَتِهِ وَلُطْفِ تَقْطِيعِهِ²⁸، فَهُوَ عَرْنِينَ مُنْتَشِرٌ ضَخْمٌ أَلِيقٌ بِشَيْخٍ مِنْهُ بِفَتْى²⁹؛ وَهَذِهِ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْهُ عَارُهَا، إِذْ رُبَّمَا كَانَ قُبْحُ مَظْهَرِهِ كَالرُّقِيَّةِ لِحُسْنِ مَخْبَرِهِ! مِثْلَمَا كَانَ قُبْحُ قَدَمِي الطَّائِوسِ رُقِيَّةً لَذِيلِهِ الْعَبْقَرِيِّ، وَمِثْلَمَا كَانَ قَلْحُ أَسْنَانِ أَبِي زَيْدٍ السَّرُوجِيِّ رُقِيَّةً لِلْسَّانِيَةِ الرَّطْبِ مِنَ الْبَلَاغَةِ!

وَيَرْجِعُ الْجَمَالُ الذَّاتِي لِعَرْنِينَ غَرْنُوِي إِلَى هَذَا الْحَذَقِ الَّذِي لَا يُصَدِّقُ فِي تَلَقُّفِ الرِّوَايَاتِ، فَالْحَذَقُ جَمِيلٌ وَلَا بُدَّ! وَجَمَالُهُ مِمَّا انْتَبَهَتْ إِلَيْهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، إِذْ لَمَّا عَرَفَتْ لِلْحَذَقِ شَطْرَ حُسْنِهِ، سَمَتْ عَمَلِ الْعَامِلِ بِهِ: إِحْسَانًا، مُشْتَقًّا لَهُ مِنَ الْحُسْنِ؛ بَلْ لَقَدْ عَلِمَتْ الْعَرَبُ مِنْ ذَلِكَ وَتَكَلَّمَتْ بِهِ؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ: «مُسْتَحْسِنًا حَذَقَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمْ أَرْ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يُفْرِي فَرِيَةً!»³⁰، وَالْعَبْقَرِيُّ صِفَةٌ لَمَّا تَمَّ حُسْنُهُ³¹؛ وَمِنْ مَشْهُورِ كَلَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ»، فَكَأَنَّهُ قَالَ، بَلْ لَقَدْ قَالَ: «جَمَالُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يَحْذِقُهُ!». الْحَذَقُ جَمِيلٌ إِذَا، وَمِمَّا كَانَ! وَلَوْ كَانَ مِنَ الْهُوَامِ وَخَشَاشِ الْأَرْضِ، كَالسَّرَفَةِ³²، وَالْعَنْكَبُوتِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالنَّمْلَةِ؛ بَلْ وَلَوْ كَانَ مِنَ الْكِلَابِ نَفْسِهَا! فَكِلَابُ الصَّيْدِ، مِثْلًا، تَكْتَسِبُ جَمَالًا لَا تَكْتَسِبُهُ كِلَابُ الْمَحَلَّةِ³³، لَا شَيْءَ إِلَّا لِحَذَقِهَا الصَّيْدَ؛ وَمَنْ تَصْدِيقُ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْأَمْراءِ رَكَّضَ خَلْفَ كَلْبٍ لَهُ مُمَعِنٌ فِي طَلَبِ ظَبْيٍ، وَقَدْ دَنَا

²³ - نفسه.

²⁴ - نفسه.

²⁵ - الرَّكْنُ: الظِّلُّ مَعَ الْإِصَابَةِ؛ لِسَانَ الْعَرَبِ/ مَادَّةُ: (رَكَنٌ). وَفِي الْمَثَلِ: أَزْكُنُ مِنْ إِيَّاسِ بْنِ مَعَاوِيَةَ!

²⁶ - الْبَخْرُ: النَّتْنُ يَكُونُ فِي الْفَمِ؛ لِسَانَ الْعَرَبِ/ مَادَّةُ: (بَخَرٌ).

²⁷ - هَذِهِ الرَّائِحَةُ أَصَابَتْ غَرْنُوِي بمرضِ الْجُمْرَةِ الْخَبِيثَةِ! الْمَتْنُ، ص: 41.

²⁸ - وَبَنُو هَاشِمٍ إِذَا شَرَبُوا شَرِبَتْ مَعَهُمْ عَرَانِيَّتُهُمْ، وَذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنْ صِفَةِ الْأَنْوَفِ! وَجَاءَ فِي طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ: «قَالَ الْكَلْبِيُّ: وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ بَنُو أَبِي مِثْلَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَشْرَفَ مِنْهُمْ وَلَا أَجْسَمَ، شَمُّ الْعَرَانِينَ، تَشْرَبُ أَنْوَفُهُمْ قَبْلَ شِفَاهِهِمْ!». كِتَابُ الْمَخَاوِرِ وَالْمَحَاضِرَاتِ، لِلْسَّيُوطِيِّ، تَحْقِيقُ: بَحْثُ الْجُبُورِيِّ، دَارُ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، بَيْرُوتَ، ص: 56.

²⁹ - الْمَتْنُ، ص: 99.

³⁰ - الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِينَ.

³¹ - لِسَانَ الْعَرَبِ/ مَادَّةُ: (عَيْتَرٌ).

³² - مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ: أَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةٍ!

³³ - انْظُرْ كَلَامًا لَطِيفًا جَدًّا لَابِنِ الْحَوْزِيِّ يَعْقِدُ فِيهِ الْمَقَارَنَةَ بَيْنَ كِلَابِ الْمَحَلَّةِ وَكِلَابِ الصَّيْدِ مِنْ جِهَةِ الْحَذَقِ الَّذِي هُوَ سِرِّيَالُ الْجَمَالِ. صَيْدُ الْخَاطِرِ، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْقَادِرِ أَحْمَدَ عَطَا، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ، 1992، ص: 474.

خَطْمُهُ مِنْ عَجَبِ ذَنْبِهِ، فَهَتَفَ بِهِ: «إِيه، فَذَلِكَ نَفْسِي!»³⁴؛ وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يَفْقَدْ ذَاتَ كَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تَفَدَّى حَذَقَهُ فِي طَرْدِهِ، لَانْفِعَالِهِ لِجَمَالِ مَا رَأَى مِنْ ذَلِكَ!

فَعَلَامَةُ كَوْنِ الْحَذَقِ جَمِيلًا إِذَا هِيَ هَزُهُ إِلَيْهِ بِجَذْعِ الْخَاطِرِ الَّذِي يُسَاقِطُ عَلَيْهِ مَنْ رُطِبَ التَّعَجُّبُ، أَوْ قُلْ إِنَّ عِلَامَتَهُ هِيَ حَصُولُ التَّعَجُّبِ مِنْهُ؛ إِذِ التَّعَجُّبُ هُوَ هَيْئَةُ الْإِنْفِعَالِ بِالْجَمَالِ، وَلَوْلَا أَنَّ النَّفْسَ تَتَعَجَّبُ لِلْجَمَالِ، لَكَانَ مِسَاسُهَا مِنْهُ مِسَاسًا بَلَا جِسٍّ، كَأَنَّهَا مِنْهُ فِي فَالِحٍ! فَتَعَجُّبُهَا لَهُ هُوَ إِحْسَاسُهَا بِهِ، وَهُوَ، فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، تَحْصِيلُهَا لِلذَّاتِ؛ وَلِهَذَا، فَلَيْسَ الْمُتَعَجِّبُ إِلَّا ذَانِقًا يَجِدُ لَذَّةَ مَذَاقِهِ! مُعَبِّرًا عَنْ ذَلِكَ بِتَصْعِيدِ حَاجِبِيهِ، وَفَتْحِ حَدَقَتَيْهِ، وَقَوْلِهِ: «بَخِ بَخِ!»، وَمَا يُشْبِهُهَا مِنْ أَلْفَافِ الْإِسْتِحْسَانِ؛ وَرَبَّمَا زَادَتْ لَذَّتُهُ، حَتَّى يَحِسَّ نَفْسَهُ، وَيُدْلِّيَ فِكَّهُ، وَيَشُقَّ جَبِيْنَهُ، وَيَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ. وَلِهَذَا اللَّذَّةُ أَصَالَةٌ فِي النَّفْسِ، وَلَعَلَّ الْإِنْسَانَ أَنْ يَفْقَدْ مُعْظَمَ لَذَّاتِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَفْقَدُ لَذَّةَ تَعَجُّبِهِ، بَلْ هِيَ مِمَّا يَرْتُّهُ مِنْ نَفْسِهِ³⁵؛ كَحَالِ هَذَا الشَّيْخِ الَّذِي بَلَغَ أَرْدَلَ عُمُرِهِ، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ أُنْسٌ بِحَيَاتِهِ مِنْ جِهَةِ تَعَجُّبِهِ، فَلَا يَزَالُ بِهِ قَلْبُهُ شَابًا فِي حُبِّ الْبَقَاءِ؛ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: «فَمَا تَرْجُو مِنَ الْبَقَاءِ وَأَنْتَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟!»، قَالَ: «كَيْ أَسْمَعَ الْأَعَايِبِ!»³⁶.

ثالثًا، الجَمَالُ الْأَحْمَرُ

يَعْلَمُ غَرْنَوِي أَنَّ لَهُ عَرْنِينًا يَتَنَسَّمُ دَهَبًا! عَرْنِينًا جَدِيرًا بِأَنْ يُصَانَ عَنْ خَبَثِ خَنَادِقِ الدَّبَاغَةِ، وَلَوْ، عَلَى الْأَقْل، بِأَنْ يُعْطَى بِقِنَاعٍ مَنَقَارِيٍّ³⁷ كَتَلِكَ الْأَفْعَةِ الَّتِي يَضَعُهَا أَطْبَاءُ الطَّاعُونَ! لَكِنْ غَرْنَوِي لَا يَبَالِي بِإِهَانَتِهِ بِالْعَيْشِ بِهِ بَيْنَ جُلُودِ الْمَذْبُغِ الْمُتَنَتِنَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى تَبْلِيدِ شَمِّ ذُنَابِ الْعَصَى³⁸؛ كَأَنَّهُ فِي ذَلِكَ، عِنْدَ نَفْسِهِ، تَحْتَ طَبَقٍ مِنَ التَّرَابِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْهُ مِثْلُ نَخْلَةٍ سَحُوقٍ؛ فَمَا هُوَ إِذَا إِلَّا مُرَابِطٌ مُتَرْقِبٌ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَا، مُهْطِعٌ لِإِشَارَةِ مَا! وَذَاتَ لَيْلَةٍ، جَاءَتْ غَرْنَوِي نَسْمَةً ضَعِيفَةً مُنْفَصِلَةً عَنْ رَائِحَةِ سَامِيَةٍ لَمْ يَعْرِفْ أَنْفَهُ شَبِيْهًا لَهَا مِنْ قَبْلُ، هُوَ الَّذِي قَصَّ أَثَرَ الرِّوَاثِ كُلِّهَا فِي مُعْظَمِ تَرَابِ بَارِيْسَ، حَتَّى دَمَعَهَا بِخَاتَمِهِ، وَقَيَّدَهَا فِي دِيْوَانِهِ! فَسَرَّعَانَ مَا أَرَّهَ عَرْنِينُهُ إِلَى طَلَبِ هَذَا الْبَصِيصِ مِنَ الرَّائِحَةِ أَرَّأً، وَقَدْ أَتَقَنَ أَنَّهُ هُوَ أَرْنَبُ الْإِلْسِ الَّذِي سَيَقُودُهُ إِلَى بِلَادِ الْعَجَائِبِ! وَبَعْدَ نِصْفِ مَيْلٍ مِنْ اقْتِفَاءِ الرَّائِحَةِ، وَصَلَ تَحْتَ جَنْحِ اللَّيْلِ إِلَى مُنْبَعِهَا، الَّذِي لَمْ يَكُنْ إِلَّا فَتَاةً كَاعِبًا فِي كِسْرِ بَيْتِهَا؛ يَقُولُ سَارْدُ الرِّوَايَةِ مُخْبِرًا عَنْ نَظَرَةِ غَرْنَوِي الْمُسْتَرْقَةِ إِلَيْهَا: «لَمْ يَسْبِقْ أَنْ رَأَى شَيْئًا يُوَازِي جَمَالَ هَذِهِ الْفَتَاةِ! إِنَّ مَا عَنَاهُ فِي الْوَقْعِ: لَمْ يَسْبِقْ أَنْ شَمَّ مِثْلَ هَذِهِ الرَّائِحَةِ!»³⁹؛ وَلَمْ يَكُنْ غَرْنَوِي، وَهُوَ يَتَحَسَّسُ مِنْ رِيحِ هَذِهِ الْغَادَةِ الصَّغِيرَةِ، مُجَرَّدَ وَلَدٍ، بَلْ كَانَ أَشْبَهَ بِكَاهِنٍ بِدَائِيٍّ مُنْزَوِعٍ الرَّحْمَةَ عَنَّرَ عَلَى فَتَاةٍ تَصْلُحُ أَنْ يُقَرَّبَ قُرْبَانًا، لِذَلِكَ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَتْلِهَا، إِذْ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذِهِ الرَّائِحَةَ هِيَ الْمَبْدَأُ الْأَعْلَى لِجَمِيعِ الرِّوَاثِ⁴⁰، عَزَمَ عَلَى شَمِّهَا شَمًّا حَارًّا لَا يَغَادِرُ مِنْهَا مَقْدَارَ فَتِيلٍ مِنَ الشَّدَى، وَذَلِكَ حَتَّى يَسْتَوْعِبَهُ بِحَذَافِيرِهِ؛ وَعِنْدَمَا فَرَّغَ مِنْهَا، أَحَسَّ أَنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا

³⁴ - كتاب الحيوان، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1996، ص: 312.

³⁵ - بمعنى: يموت عليه؛ وهو مأخوذ من الدعاء المأثور: «رَبَّنَا مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا».

³⁶ - المحاورات والمحاضرات، مرجع المذكور، ص: 420.

³⁷ - يُشْبِهُ هَذَا الْقِنَاعُ مَنَقَارَ الطَّائِرِ أَبِي مُنْجَلٍ، لِذَلِكَ سَمَّيْتُهُ قِنَاعًا مَنَقَارِيًّا!

³⁸ - هي من أحببت الذناب!

³⁹ - المتن، ص: 52.

⁴⁰ - نفسه، ص: 53.

هي التي جعلته، كما يقول السارد، «يدركُ هويته الحقيقية، أي أنه عبقرى، أن لحياته مصيرا علويا! بفضل عبق فتاة شارع دي ماريه امتلك غرنوي الصيغة السحرية المشتعلة على كل ما يحتاجه لخلق رائحة رائعة. أن يصبح أعظم عطار على مر الدهور!»⁴¹.

لم يكن غرنوي بحاجة إلى تعلم مبادئ الصنعة العطرية ليسود طبقة العطارين، فعربيته يضمن له السيادة عليهم، إذ يجعله بينهم، مثل نبيل بدماء ملكية بين أوباش الناس؛ لكنه كان يحتاج أن يعرف بعض حيل تركيب الطيب، لكي يختصر بها طرقا ربما طالت عليه لو رامها بمجرد أنفه؛ لذلك التحق بعطار يسمى بالديني ليتعلم منه بعضا من تلك الحيل. أدرك بالديني من أول اختبار لهذا المتعلم أنه خارق عادات عالم العطور، لذلك وطئ عزمه على أن يستخلصه لنفسه، ليستعيد به سمعته بين العطارين بعد سنوات عجاف عجز فيهن عن ابتكار عطر مقبول؛ وقد تأتى له ذلك وزيادة، حتى صارت عطوره، التي خلطها غرنوي، تطلب في بعض البلاطات الأوروبية. انتقل غرنوي، بعد أن اكتسب ما يحتاج إليه من الصنعة العطرية، إلى جنوب فرنسا، ليتعلم تدبيرا آخر من تدابير هذه الصنعة، وهو عبارة عن طريقة دقيقة تمكّنه من تركيز العبق المستخلص من المواد وحفظه بواسطة الودك المذاب⁴² دون تبديد شيء من روحه؛ فيمزعزل هذه الطريقة لن يستطيع أن يسكب عطره في قارورة، إذا فضّ ختمها خرّجت منها جنية الجمال!

تلقف عرنين غرنوي، وهو ببلدة غراس في الجنوب الفرنسي، خيط رائحة ساحرة أخرى من جنس رائحة فتاة شارع دي ماريه، هذا إذا جاز لنا أن نقول إن الملكة من جنس وصيفتها؛ فهذه الرائحة الجديدة هي ملكة تحل الروائح! فلما عرفها غرنوي، ورأى نافجة المسك⁴³ التي نفختها، وهي فتاة تسمى: لور، والتي هي في الجمال كذلك الفتاة الأولى، إذا راعينا مرة أخرى فرق ما بين الملكة والوصيفة؛ أيقن أنها رائحته الموعودة التي سيركب منها عطره، الذي لا بد أن يكون حديث خرافة العطارين في كل وقت! ولكي يضمن أن يتوهج شذى لور في قارورته، قرّر أن يضم إليه شذى أربعين فتاة من حسان عذارى غراس، شذاهن في هذا المزاج بالنسبة لشذى لور كصوحيبات الأميرة المدللة يحفن بها! وبعبارة أخرى، كانت خطة غرنوي لخلط عطره تعني إحداث مقتلة عظيمة، أي سوق قربان جماعي من الأبقار إلى المذبح! ولذلك فقد تحول إلى قاتل متسلسل لا يترك وراءه ما يدل عليه؛ فكان يغتال كل فتاة على حدة، ويغطي جسدها بالدهن المذاب من أخص قدمها إلى شوى رأسها، ويتركه عليها حتى يمتص آخر نسمة من رائحتها، ثم ينسل عنها بغنيمته من الدهن المطيب، وقد تركها وراءه غسيلة من الرائحة، ولها هيئة فراشة امتصها عنكبوت أسود!

صنع غرنوي بلور مثلما صنع بالفتيات الأخريات اللواتي كان عبقهن فراشا لعبقها، ثم مزج عطره من هذه الأخلاط، وسكبه في زجاجة، فأضحت تشع بجمال أحمر؛ وفي هذا الوقت ألقي القبض عليه، بعد أن عظم الشك في كونه سفاح النساء الذي دّخ رجال الشرطة في غراس؛ ثم اقتيد ليصلب في ملا من الناس الغاضبين. وهناك، هدر غرنوي من عطره مقدار قطرة، استهام لها الحشد كله، فشرعوا ينظرون إليه في ضراعة كأنهم

41 - نفسه، ص: 55.

42 - الشحم المذاب.

43 - وعاء المسك في جسم الطي.

ينظرون إلى ملك كريم! يقول سارد الرواية في تصوير ذلك: «لقد اعتبر الجميع أن هذا الرجل ذو البزة الزرقاء هو الكائن الأجل والأكثر جاذبية، فبدأ للراهبات كتجسيد للمخلص، ولعبد الشيطان كسيد الظلمة المنير، وللمتنورين ككائن أعلى، وللصبايا كأمر خرافي، وللرجال كانعكاس مثالي لذواتهم!»⁴⁴. أما غرنوي، فقد كان يقف مثل فاتح عظيم ينظر إلى رعايا المدينة التي فتحها عنة، مزها بهذا القبول العجيب الذي لو شاء لبرز به إلى الجالس على العرش في قصر فرساي، فلتنحى له عن عرشه طيبة به نفسه. كان يقيس الفرق بين ما كان فيه من الضعة وبين ما أصبح عليه من الرفعة الملكية؛ «فهو جان باتيست غرنوي المولود دون رائحة، في أكثر أماكن العالم تحمة بالروائح الكريهة، الناشئ من القمامة والغائط والعفن، الذي تربى دون حب، وعاش دون روح إنسانية دافئة (...) هو الضئيل الأحذب الأعرج الذي يتجنبه الجميع، والشنيع من الداخل والخارج على حد سواء، قد توصّل إلى جعل نفسه محبوبا من قبل الجميع (...) قد أنجز الفعل البروميثي (...) إنه هو الذي زرع الشرارة في نفسه بنفسه، فهو إذا أعظم من برومئوس!»⁴⁵.

وبرومئوس أقل عظمة من غرنوي، فضلا عما ذكره السارد، لأنه لم يزد على أن سرق ناراً! ومهما أثبتنا على بطولته في ذلك، فهو في النهاية ثناء على بطولة لص اختلس شيئا نفيسا من جرزِه! كما نثني على النطف بن خيبري مثلا الذي نهب أموال كسرى الطائلة التي بعثها إلى عامله على اليمن: باذام⁴⁶، أو كما نثني على روبن هود، أو على أرسين لوبين⁴⁷؛ أما غرنوي، فلن سرق روائح حوريات غراس، فلقد قلب خواصها بطريقة شبيهة بطريقة النحل في قلب خواص الرحيق، وقد شق في كل رائحة منها عن عرفها الحر، كما تشق الشرفة عن جناحين كأنهما قطعتان من الديباج نسيج وحده؛ ولم يكن بين تلك الروائح، وهي في طي أجسادها، وبين أن تحيف إلا ساعة من نهار أو ساعتين، لولا أن غرنوي استلها منها كما تستل الشعرة من العجين، ونظمها في سلك مضى من إحساس عرينه، كما ينظم الياقوت الأحمر، ناقلا إياها من الفساد إلى الكون، بل من التراب إلى السحاب! وبعد هذا، قد يقال إن غرنوي اغتصب العبق! لكن لأن يقال: اغتصب العبق هو أنصف لفحلة عرينه! ولا نجد لوصف هذا الجمال الثاقب الذي اجتزحه غرنوي أبلغ من قولنا: إنه جمال أحمر! قياسا إلى قول العرب في أمثالها: «الحسن أحمر»⁴⁸؛ قاصدة به معنى: الامتياز الجمالي للحمرة، كما يستفاد من قول العنابي: «وجمال كل مجلس أن يكون سقفه أحمر وبساطه أحمر»⁴⁹؛ وقاصدة به أيضا معنى: عزة الجمال وكونه لا ينال إلا بشق الأنفس، كما يستفاد من قول البيوسي: «و[يراد] بهذا المثل [الحسن أحمر]: من أراد الحسن صبر على أشياء يكرها»⁵⁰؛ فهذا الجمال الذي فتن به غرنوي طلاب دمه: أحمر بالمعنيين معا: حمرة صبغ، وحمرة لغوب.

44 - المتن، ص: 270.

45 - نفسه، ص: 271.

46 - انظر: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، لابن نباتة المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص: 55.

47 - شخصيتان من الأدب الأوربي تمثلان اللص، أو الخارج عن القانون، الذي يشغب، بسرقة أو بقطعه الطريق، على الإقطاعيين أو الأغنياء فاسدي الذمم!

48 - زهر الأكمل في الأمثال والحكم، مرجع مذكور، الجزء الثاني، ص: 123.

49 - كتاب الحيوان، مرجع مذكور، الجزء الخامس، ص: 96.

50 - زهر الأكمل، ص: 123.

فأما حمرة الصبغ، فتؤول إلى الطَّبْع الناري لعطر غرنوي، الذي أشبه، وهو في قارورته، زَيْتًا يَتَلَهَّبُ في زجاجة مصباحه؛ ومما يدلُّ على هذا الطبع: وَصَفُ الساردِ اهْتِياجَ جمهورِ مَنْصَةِ الْقِصَاصِ: بكلمة: «جحيم»⁵¹، بل بقوله، وإن كان يعني قوما آخرين ممن أصابهم رَدْعٌ⁵² طَيِّبِ غرنوي: «وفجأةً انسكب عليهم الجمالُ كنار متأججة!»⁵³ وبقوله أيضا: «فهجموا على الملاك (...) كلُّ منهم يريد أن يَحْصُلَ على جزء منه، على ريشة صغيرة [من جناحه]، على شَرَارَةٍ من ناره الرائعة»⁵⁴؛ ثم إِنَّهُ يَعْظُمُ الظَّنُّ في هذا العطر أن يكون في ذاته أحمَرُ حُمْرَةٍ ياقوتية، وربما مَادَ لونه إلى تركيز آخر من الحمرة، كحُمْرَةٍ كُمَيْتٍ، تُصَيِّرُهُ شبيها بِحُمْرَةٍ تَغْلِي وهي باردة! أو كحُمْرَةٍ وَرْدٍ، تَجْعَلُ لونه شبيها بِلَوْنِ أَسَدٍ يَوْشِكُ أَنْ يَشْتَعَلَ! وسبَّبَ ذلك أنَّ رَوْحَ هذا العطر مسلوْبَةٌ من لور، وهي فتاة ذاتُ فَرْعٍ مِنَ الشَّعْرِ أحمَر، ما ينبغي أن تُوصَفَ إِلَّا بكلمتين اثنتين، هما ما وَصَفَتْ به بِنْتُ الخُسِّ الإيَادِيَّةُ نَفْسَهَا: «نارٌ مُوقَدَةٌ»⁵⁵، ومثلُ لور في ذلك مِثْلٌ وصيفتها: فتاة شارع دي ماريه، فإنَّهما معا ذَوَاتَا شَعْرِ أحمَر. يقول السَّارْدُ: «فتأكَّد أنَّ عَبَقَ ما وراء السُّور [يقصد عَبَقَ لور] يُشْبِهُ إلى حدٍّ كبير عَبَقَ الفتاة ذات الشَّعْرِ الأحمَر [يقصد فتاة شارع دي ماري]، لكنَّه لا يماثلُه تماما، كما تأكَّد من أنَّه يفوح هنا أيضا من فتاة ذات شَعْرِ أحمَر»⁵⁶؛ وعليه، فلمَّا كانت هاتان الفتاتان عروستَي عِطْرِ غرنوي، من حيث أَلْهَمَتُهُ إحداهما فِكْرَتَهُ، وَوَهَبَتُهُ الأُخْرَى قَطْرَتَهُ! فقد اكْتَنَفَ هذا العطرُ بِحُمْرَتَيْنِ حَارَّتَيْنِ؛ فلا جَرَمَ كان أحمَرٌ مِثْلَ دَمٍ عَبِيْطٍ!

وأما حُمْرَةُ اللُّغُوبِ، فأصلُها ظَفَرُ غرنوي بَعَطَرَهُ في كَبِدٍ، ودخولُه عليه في ثَنُورٍ، وأخذُه إِيَّاهُ من بين جبهة وذراعَي أَسَدٍ؛ إذْ أَصَابَ به دَمًا كَثِيرًا لا تَسْكُنُ رَعْوَتُهُ، فضلا عن تَكَلُّفِهِ فِيهِ ضِدَّ طَبَاعِهِ، واشتقاقِهِ له من غير معدِنه، وذلك لَمَّا اسْتَقَاءَ من رَشَحِ أجسادِ مَيِّتَةٍ، عَكَفَ عليها عُكُوفَ غَسَّالٍ مع سِدْرِهِ وَحَنُوطِهِ، غيرَ أَنَّهُ سَلَبَ في هذا الموضع الرائحةَ ولم يُعْطِها؛ فجاء بعطر جميلٍ رَغَمَ أَنْفِهِ! كَأَنَّمَا قَطَرَهُ من وَرْدِهِ، أو دَخَنَهُ من عُودِهِ، أو اسْتَلَّه من دَمِ غزاله، أو حَتَّى صَنَعَهُ كيميائيا من مبادئه المنسجمة؛ وما كان لهذا العطر أن يَخْرِقَ ضرورته، وهي وجوبُ كونه عطرا شنيعا يُسْعِطُ الأنفَ⁵⁷! لولا أنَّ من ورائه عَرْنِينًا مُبِينًا متناهيًا في التلطُّفِ للروائح، صارت معه تلك الأجسادُ الهامدة، على نحوٍ يكاد يكون سَحْرِيًّا، مثل غزلان التَّبْتِ⁵⁸، التي يَرَشِّحُ المِسْكُ من جلودها، ويُشَمُّ في أَبْعَارِها وَأَبْوَالِها.

⁵¹ - المتن: ص: 271.

⁵² - الرَّدْعُ: أَثَرُ الطَّيِّبِ؛ انظر: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال العسكري، تحقيق: عزة حسن، دار صادر، بيروت، 1993 ص: 386. و تعبيرنا بالردع أفصح وأصدق من تعبير المترجم: بـ«هالة الرائحة».

⁵³ - المتن، ص: 286.

⁵⁴ - نفسه.

⁵⁵ - كتاب الحيوان، مرجع مذکور، الجزء الخامس، ص: 95.

⁵⁶ - المتن، ص: 195.

⁵⁷ - «السُّعُوطُ وَالتُّشُوقُ وَالتُّشُوعُ فِي الأنفِ، سَعَطَهُ الدَّوَاءُ يَسْعُطُهُ وَيَسْعُطُهُ سَعَطًا»؛ لسان العرب/ مادة: (سَعَطَ).

⁵⁸ - هذه الغزلان موجودة أيضا في غابات الهيمالايا، وفي قطاع من سيبيريا.

لقد كان الجمال الذي سَكَبَهُ غرنوي في القارورة جمالا أحمر، لأنه كان جمالا عزيزا، مُنْفَسًا⁵⁹، مُضْلِعًا؛ وحَسْبُهُ من حُمَرته، وكفى بها حُمرة! أنها أَكْبَنُهُ لوجهه على مَصْرَعِهِ، فلم تَذْهَبْ بِشِقِّ واحدٍ من نفسه، بل دَهَبَتْ بِشِقِّيْهَا كِلَيْهِمَا؛ وذلك أَنَّ غرنوي قد عَجَلَ إلى الموت بمسقط رأسه، ومَطْلَبِ أنفه⁶⁰، فكان كساحرٍ انقلب عليه سحره، أو لعلَّه طاب له موته، لَمَّا رَأَى من كماله في غراس ما رَأَى، فكأنَّ موته عنده لَبَنَةٌ تَمَامُ كماله! لذلك سُرَّعان ما أتى ليلاً مكاناً مألوفاً له في باريس، فيه جماعةٌ من الرِّعَاعِ يَصْطَلُّونَ، فسَكَبَ على جِلْدِهِ مِلءَ قارورة شَمِّهِ، فكان كمن يَنْجَرِّعُ مِلءَ قارورة شَمِّهِ! إذ لَمَّا أَصَابَ رَدْعُ العطرِ الفاتِكِ القومَ، قاموا إليه يمشون مثل رُومَبِيَّينَ⁶¹. يقول الساردُ: «فهمجوا على المَلَاك (...) كُلُّ منهم يريد أن يَحْصُلَ على جزء منه، على ريشة صغيرة [من جناحه]، على شَرَارَةٍ من ناره الرائعة. مَزَقُوا عنه ثيابه، ثم شعره وجِلْدَهُ (...) كالضَّبَاعِ انقضوا عليه»⁶²، ثم لَمَّا عَجَزَتْ أسنَانُهُمْ وأظفارُهُم عن تمزيق أديمه، قَطَّعُوهُ بالفؤوس والسَّوَاطِيرِ إِرْبَا إِرْبَا⁶³.

وختاماً، فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا خَرَجَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ، وَانْتَصَبَ فِي نِصَابٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ نِصَابِهِ، اسْتَعْرَبَتْهُ النَّفْسُ وَعَجِبَتْ لَهُ، لِعَكْسِهِ الْقِيَّاسَ رَغْمَ شُهْرَتِهِ، وَنَقْضِهِ غَزْلَ الظَّنِّ الرَّاجِحِ مِنْ بَعْدِ قُوَّتِهِ؛ فَحَنَنْ لَا نَعَجَبٌ مِثْلًا مِمَّنْ وَرِثَ إِمَارَةً أَوْ عِلْمًا أَوْ مُرُوءَةً عَنْ عِثْرَتِهِ، أَوْ كَانَ، كَمَا قَالَ ذُو الرِّمَّةِ يَصِفُ صَيَّادًا حَازِقًا، قَدْ أَلْفَى أَبَاهُ بِذَلِكَ الْكَسْبِ يَكْتَسِبُ⁶⁴؛ بَلْ نَعَجَبٌ مِمَّنْ وَرِثَ ذَلِكَ عَنْ كِلَالَةٍ، أَيْ فَازَ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ مِمَّا يَحْصُلُ عَادَةً لِأَمثالِهِ، أَوْ كَانَ هُوَ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ مِنْ مَعَارِزِهِ، كَعَصَامِ بْنِ شَهْبَرٍ حَاجِبِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ، الَّذِي سَوَّدَتْهُ نَفْسُهُ، وَنَبَهَتْ بِهِ مَوَاهِبُهُ، مَعَ قَلَّتِهِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ عَشِيرَتِهِ وَذَلَّتِهِ؛ وَكَالْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ الَّذِي لَمْ يَسُدِّ قَوْمَهُ بِشَرَفٍ قَدِيمٍ، بَلْ كَانَ، كَمَا قَالَ خَالِدُ ابْنِ صَفْوَانَ، وَاللَّفْظُ لِي، يَبِينُ مِنَ الشَّرَفِ وَالشَّرَفِ لَا يَبِينُ مِنْهُ! فَكَانَ إِذَا غَضِبَ، غَضِبَ لَهُ مَائَةُ أَلْفِ سَيْفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَسْأَلُونَهُ فِيمَ غَضِبَ! فَهَذَا بَابٌ عَالٍ مِنَ الْكَمَالِ النَّفْسِيِّ الَّذِي رَاغَمَ ظَرْفُهُ، وَاقْتَحَمَ عَقَبَتَهُ، فَحَسُنَ لَذَلِكَ حُسْنَيْنِ اثْنَيْنِ: حُسْنًا ذَاتِيًا، مِنْ جِهَةِ نَيْلِ السِّيَادَةِ، وَحُسْنًا تَكْوِينِيًا، مِنْ جِهَةِ بُلُوِّ الْمَحَلِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لَهَا، وَهَذَا بُلُوٌّ، أَوْ قُلٌّ: بِلَاءٌ، حَسَنٌ!

ولقد أوتي غرنوي كمالاً حَسِيًّا مِنْ جِهَةِ شَمِّهِ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَطَّ فِيهِ إِلَى حَضِيضِهِ، حَتَّى يَتَحَرَّجَ بِهِ، مِنَ الْعَيِّ فِيهِ، كَمِثْلِ مَا يَتَحَرَّجُ الْأَعْشَى بِرُؤْيَتِهِ، وَالْأَعْرَجُ بِمَشْيَتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ نَشَأَ فِي دِمْنَةٍ مِنَ الرِّوَائِحِ الشَّنِيعَةِ،

⁵⁹ - بمعنى تُشَقُّ لَهُ النَّفْسُ شَقًّا!

⁶⁰ - مطلب أنف الإنسان فَرَجُ أَمِّهِ، لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّتْ أَيْامُهُ فِي الرَّحِمِ، فَلَا مَكَانَهُ فَطَلَبَ بِأَنْفِهِ مَوْضِعَ الْمَخْرَجِ، وَكُنِّيَتْ بِهِ عَنْ أَصْلِهِ؛ الْحَيَوَانُ، مَرْجَعُ مَذْكُورِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ، ص: 403.

⁶¹ - الزومبي (بالإنجليزية: Zombie): حديثُ خُرَافَةٍ، وَهُوَ مَيِّتٌ خَارِجٌ مِنْ قَبْرِهِ يَسْعَى تَحْتَ تَأْثِيرِ قُوَّةٍ سَحَرِيَّةٍ، أَوْ هُوَ مُتَعَرِّضٌ لِعُدُوٍّ عَكَسَتْ عَلَيْهِ تَرْكِيبُهُ النَّفْسِيَّ الْإِنْسَانِيَّ، فَصَيَّرَتْهُ وَحْشًا؛ وَلَهُ فَسَادٌ أَضَرُّهُ: أَكَلُ لَحْمِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ؛ وَقَدْ أُطْلِقَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لَوْصِفِ شَخْصٍ مَنُومٌ مَجْرَدٌ مِنَ الْوَعِيِّ الذَّائِيٍّ مِنْذُ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ. وَتَكَتَسَبَ شَخْصِيَّةُ الزُومْبِي الْآلَنَ شَعْبِيَّةٌ مِلْحُوظَةٌ فِي الْعَالَمِ، بَعْدَ اسْتِلْهَامِ السِّينِمَا الْأَمْرِيكِيَّةِ إِيَّاهَا عَلَى نَحْوِ مَشُوقٍ.

⁶² - المتن، ص: 287.

⁶³ - نفسه.

⁶⁴ - يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ فِي مُحَاسِنِ أَهْلِ الْعَصْرِ، الثَّعَالِي، المجلد الثالث، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ص: 155.

ثم مَرَدَ عليها، فكان منها على مِثْلِ ما يكون الكَسَّاحُ من جُبِّ العَذْرَةِ!⁶⁵ ولذلك، فَلَوْ أَنْتَجَّ قياسُ الضرورة في غرنوي نتيجته، لكان يجب عليه أن يَحْمِلَ في وجهه أنفا مجذوعا! لكنه، عَكَسَ القضية، حَمَلَ فيه عرنينا مُبِينا، يكاد من إبانته الروائح أن يَتَكَلَّم! فظَفَرَ غرنوي لذلك بجمال تكويني، أساسه، كما قُلْتُ آنفا، أعجوبة خَرْقِ العادة؛ ثم ظَفَرَ أيضا بجمال ذاتي، أساسه التَّنَبُّهُ الفائقُ إلى أنماط نفيسة من الرائحة الطيبة، تَخْفَى من جُملة الروائح خَفَاءَ عروقِ الذهب من جُملة التراب! وقد بلغ جماله الذاتي غايته، عندما ارتقى إلى مرتبة امتلاك هذه الأنماط النفيسة، وخلطها بمقاديرها، وسكبها في قواريرها؛ وأقصى ما أدركه من ذلك استلابه رائحة خَمْسٍ وعشرين فتاة من حِسَانِ فتيات بلدة غراس، وذلك بعد قَتْلِهِنَّ، كلَّ واحدةٍ منهن على حِدَةٍ، ثم تركيبه من هذه الروائح عطرا مذهلا يسيل من قارورته، كما يسيل مِيزَابُ معبدٍ وثنيٍّ بدماء قَرابينه! ولما تَضَمَّخَ غرنوي بقطرة واحدة من هذا العطر، في مَلٍّ جاؤوا ليشهدوا نزولَ القصاص به، جَعَلَ يَتَلَهَّبُ بجمال باهر، فخرَجَ عليهم كذهبٍ أحمرٍ يخرجُ من بَوْتَقَتِهِ! ثم أنسلَ من بينهم وَهُمْ يَتَمَسَّحُونَ من الهيام بثوبيه؛ وفي موقف آخر، تَضَمَّخَ غرنوي بِمِلءِ هذه القارورة، فجاش جماله كما يجيش البُرْكان بِجَمَمِهِ، فلم يَعِدْ يُجْدِي معه هذه المرة مُجَرَّدُ مَسِّ ثوبه، أو لَثَمِ يده، أو تقبيل الأرض عند قدميه؛ بل الوَلُغُ في دمه، ونَهْشُ لحمه، وتَمَشُّشُ عَظْمِهِ، ذلك أَنَّ القومَ الذين حضروه ذَهَلُوا فيه حتَّى أَكَلُوهُ حَيًّا!

⁶⁵ - جب العذرة: حفرتها، أو يسمى اليوم بالصَّحِي؛ وكسَّاحها: هو المتولِّي إفراغها وإصلاحها.